

ديكارت والمنهج العقلي¹

د. غيضان السيد علي

جامعة بني سويف، مصر

Abstract:

Rationalism is the doctrine that believe oft the power of reason and all things are given to reasonable causes like in natural science, philosophy, ethics and politics, and in particular: Rationalism is a theory that explains knowledge in the light of primary and necessary principles of the mind that there is no way to know without them, therefore the senses could not provide us a real and true facts and information.

Keywords: Rationalism, mind, sensation, perception, reasonable, natural science, philosophy, ethics, politics.

الاتجاه أو المذهب العقلي Rationalism بوجه عام: هو ذلك المذهب الذي يقول بسلطان العقل ويرد الأشياء إلى أسباب معقولة ويطبق في العلم والفلسفة والأخلاق والسياسة، وبوجه خاص: هو نظرية تفسر المعرفة في ضوء مبادئ أولية وضرورية ترى أنه لا سبيل إلى أي معرفة بدونها، لأن الحواس لا تستطيع أن تزودنا إلا بمعلومات غامضة ومؤقتة¹.

وقد اتفق العقليون Rationalists على أن العقل قوة فطرية في الناس جميعاً، فالإنسان عندهم لا يتلقى العلم من الخارج بل من عقله هو، وعن طريق هذه المبادئ التي توجد في عقله سابقة على كل تجربة، يستطيع أن يعرف العالم الخارجي، بل ويستطيع أن يفرض قوانينه ومبادئه عليه². وهم يصفون هذه المبادئ بأنها أولية a priori أي سابقة على التجربة المكتسبة ومستقلة عنها، وذلك في مقابل المعرفة البعيدة a posteriori التي تجئ اكتساباً عن طريق التجربة. ولذلك تصور العقليون العقل بأنه ملكة فطرية، وحين يتحدث ديكارت أبو العقليين عما يسميه "نور الفطرة" أو "النور الطبيعي" فإنه يقصد بذلك نور العقل أو المعرفة العقلية. ولما كان العقل يدل عند هؤلاء العقليين على ملكة واحدة مشتركة بين الناس جميعاً، فقد تصوروا أحكامه مطلقة وضرورية وكلية. والمقصود بالحكم المطلق أنه الحكم الثابت

¹ - قدم هذا المقال كمدخلية ضمن أعمال الملتقى الدولي الثاني حول سؤال المنهج في الفلسفة والعلوم الانسانية، المنظم من طرف مخبر الفلسفة وتاريخها بجامعة وهران 2، يومي 21 و22 جوان 2014.

الذي لا يتغير معناه بتغير المكان أو الزمان، وضده النسبي. والمقصود بالحكم الضروري أنه الحكم الواضح بذاته ذو النتيجة الحتمية، وضده الممكن أي الحكم ذو النتيجة الاحتمالية. والمقصود بالكلي أنه العام المشترك بين جميع الناس، وضده الجزئي الخاص بأحد الأفراد فحسب³.

ومن ثم نقول إنه لا يجانبنا الصواب إذا قلنا أن الاتجاه العقلي بشكل عام هو الاتجاه الذي يقوم على الإيمان بالعقل وقدرته عن طريق الاستدلال العقلي الخالص على تحصيل الحقائق عن العالم بدون مقدمات تجريبية، ويحاول أيضاً إقامة النسق الفلسفي على مجموعة من المبادئ العقلية الأولية الواضحة بذاتها، وبحيث يستطيع بموجب هذه المبادئ أن يقدم تفسيراً عقلياً للوجود والمعرفة الإنسانية، ويطرح رؤيته ابتداءً من هذه المبادئ وعلى أساسها في شتى المباحث الفلسفية، ومن هذا المنطلق يعتقد أنصار هذا الاتجاه أن هذه المبادئ سابقة على التجربة سواءً أكان هذا السبق أولياً أم منطقياً وبحيث تنتظم التجربة وفقاً لها، غير أن أهم ما يتصف به المذهب العقلي حقيقة إنه على النقيض من المذهب التجريبي Empiricism، بمعنى أنه لا يستمد المعرفة بالعلم من الخبرة الحسية، ولكنه يذهب للقول بأن وراء الخبرة الحسية معرفة أسبق من ذلك يسميها أفلاطون معرفة قبلية، ويقول عنها ديكارت إنها أفكار فطرية موجودة بالعقل، ويبيّن ليننتس على وجود هذه الأفكار الفطرية ضرورة أن توجد كذلك مبادئ فطرية تربط بين هذه الأفكار وتستنبط منها كل القضايا استنباطاً منطقياً، ومن ثم يصف العقلانيون قضايا الرياضيات بأنها من ذلك النوع من القضايا، وعللوا لهذا صدقها، ومن ثم زعموا بأن الفيلسوف العقلاني هو الذي يقول بأن المعرفة صورية أو إنها تركيبية قبلية.

ويقوم المذهب العقلي أيضاً في مواجهة الدعاوي الدينية. فهو ينكر خوارق الطبيعة، فهو ينكر خوارق الطبيعة والمعجزات، محاولاً اختبارها بحك عقلي، غير أنه لما كان من المستحيل اختبار الغيبات والدعاوي الدينية بحك عقلي، غير أنه لما كان من المستحيل اختبار الغيبات والدعاوي الدينية بحك عقلي، بما يستحيل معه إثبات ما هو نقيض لما جاءت به الأديان من خوارق ودعاوي، فيصبح المذهب العقلي هو "الاستدلال العقلي الخالص" وهو التعريف الشائع له.

وللمذهب العقلي صورة قديمة وأخرى حديثة، الأولى يمثلها فيثاغورث حيث إن تفسيره الرياضي للوجود بالأعداد ساعد على نشأة المذهب العقلي قديماً، وبارمنيدس الذي وحد بين الوجود وفكرة الوجود، وأناكسجوراس الذي أكد أن العقل هو مصدر الحركة والمعرفة، ولكن يعتبر أفلاطون هو رائد المذهب العقلي في صورته القديمة؛ حيث يصف المثل بأنها عقلية قائمة في العقل وأن المعرفة غير ممكنة إلا إذا تذكر الإنسان الحياة التي كانت تحياها النفس في عالم المثل قبل هبوطها إلى البدن. كما أننا نجد ميلاً نحو العقلانية في فلسفة أرسطو، وخاصة في نظريته عن النفس والعقل، حيث يفسر الإدراك

العقلي باقتراض عقليين الأول: عقل منفعل (عقل بالقوة) والثاني: عقل فعال (عقل بالفعل)، وذلك تحقيقاً للمبدأ الأرسطي القائل بأن كل ما هو بالقوة لا يخرج إلى الفعل إلا بتأثير شيء آخر بالفعل⁴. وقد تطور هذه الاتجاه كثيراً في صورته الثانية في الفلسفة الحديثة على يد ديكارت واسبينوزا وليبنيتس، الأمر الذي يحدو بنا أن نعرض لأهم ممثلي هذا الاتجاه في الفلسفة الحديثة وهو أبو الفلسفة الحديثة رينيه ديكارت.

المنهج العقلي عند ديكارت

لم يكن الاهتمام بالمنهج عند ديكارت وليد الصدفة أو مجرد شيء عارض ظهر بين عشية وضحاها، ولكن كان ذا بذور عميقة نشأت مع الفيلسوف وتغلغت في تفكيره منذ مرحلة تعليمه الأولى، وتشهد بذلك كتابات الشباب المبكرة، إذ يقول "بايه" في كتابه "حياة السيد ديكارت": "إنه استدل من رسالة وجهها ديكارت إلى الأب بواسون P.Poisson أنه كان يفكر في المنهج منذ أن كان طالباً في معهد لافليش"⁵، كما يقول ديكارت نفسه في الجزء الأول من "المقال في المنهج": "ولكني لا أخشى أن أقول ما اعتقده من أنني كنت كثير التوفيق، إذ ألفت نفسي منذ الحداثة في بعض الطرق التي قادني إلى أنظار وحكم، ألفت منها منهجاً، به يبدو لي أن عندي وسيلة لزيادة معرفتي بالتدريج، وأن أسموها قليلاً إلى أعلى درجة يسمح ببلوغها ما في عقلي من ضعف، وما في مدى حياتي من قصر"⁶. هذا وإن كان ديكارت يحكي لنا عن بدءه مرحلة التعبير في كتابة هذا المنهج، إذ يقول في بداية القسم الثاني من المقال: "كنت إذ ذاك في ألمانيا، عندما استدعيتني الحروب التي لم تنته فيها بعد، ولما كنت في عودتي من تويج الإمبراطور إلى الجيش، ألجأني بدء الشتاء إلى قرية لم أجد فيها شيئاً من السمر ملهياً، على أنه لم يكن عندي، لحسن الحظ، ما يقلقني من هم أو هوى، وكنت أمكث اليوم كله في حجرة دافئة، حيث كانت لي كل الفرصة لتوجيه همتي للفكر"⁷. والمنهج هو "فن البرهان العقلي الذي يمكن استخدامه في العلوم الرياضية والطبيعية على السواء"⁸.

إذن فكما يزعم ديكارت أن البحث عن منهج جديد كان شغله الشاغل، فإذا به في العاشر من نوفمبر من عام 1619م يقوم باكتشاف أسس علم هام هو ما ضمنه كتابه "مقال في المنهج". ففي داخل حجرته الدافئة كان يصرف وقته في التحدث لنفسه والتمعن في خواطره فأثته رؤية اشتملت على ثلاث رؤى، فقد رأى في نومه رؤيتين أوليتين تنبأته بأن الله قد اختاره واصطفاه لاكتشاف الحقيقة! أما الرؤية الثالثة فيرى فيها قاموس (وربما أشار معنى هذا القاموس إلى تضمن العلوم كلها في علم واحد) ثم يرى ديوان شعر (وهو يفيد- كما فسره هو- انضمام الفلسفة إلى الحكمة)، وهذا يعني كما يرى أحد الباحثين⁹ ثلاث اعتبارات:

أولاً: إن العلوم جميعاً ممثلة في علم واحد، وأن مفتاح واحد يفتح كنوزها.
ثانياً: إن الدعوة التي تلقاها الفيلسوف للبحث عن ذلك المفتاح قد أتته من لدن الله، لا عن طريق شيطان ماكر.

ثالثاً: إن البحث عن المفتاح يكمن في نفسه؛ لأن الحقيقة كامنة فيه كمن النار في الحجر الصوان، ومغزى هذا الكشف الديكارتي الذي حدث في ليلة العاشر من نوفمبر يفيد بأن العلوم كلها واحدة تتجمع في الفلسفة أو الحكمة التي نجدها كامنة في أنفسنا، وأن الله قد اختار ديكارت لبنائها.
وإن كان بعض المحدثين من كتاب السيرة الديكارتية يميلون إلى التشكيك في هذه القصة المزعومة من قبل ديكارت، فيشكك "بول جانييه" في هذه القصة ويرى أن ديكارت قد رتب حياته العقلية ترتيباً متأخراً حين هم بكتابة المقال، في حين يرى "ألفرد اسبيناس" أن كتاب "المقال في المنهج" وثيقة تاريخية تثير الشبهات من حيث الشكل ومن حيث المضمون على السواء، وانتهى إلى رفضها كلها دون أن يفرق بين ما يتصل بهذا وما يتصل بذاك، وكان نقده ينصب على مضمون القصة حيث يقول: "إن من العسير أن نصدق أن ديكارت في الخامسة عشرة من عمره كان ناقداً للتعليم في مدرسة لافليش.... فالإنسان لا يتصور شاباً حديث السن يسيطر على مجموعة العلوم والفنون المقررة في دراسته ويستعرضها ناظراً إليها نظرة التعالي، آخذاً على بعضها صعوبتها على البرهنة وأن تكن نافعة، وعلى بعضها الآخر بأنها لا جدوى منها وإن يكن من الممكن البرهنة عليها علمياً" كما ذهب "كانتكور" إن قصة "المقال في المنهج" تخدعنا عن غير قصد عن الترتيب التاريخي لمشاغل هذا الفيلسوف، كما تخدعنا عن نشأة وتسلسل العناصر المختلفة التي تألفت منها فلسفته.... وهذا التاريخ لأفكار ديكارت مزيف من طرف إلى آخر، ومن ثم يقول الدكتور عثمان أمين معلقاً على هذا النقد الثلاثي: "إن حذر جانييه وارتباب اسبيناس قد بلغا من الشدة على يدي "كانتكور" بحيث أصبح تأويلاً عاماً ومذهبياً، يدافع عن قضايا كثيرة مختلطة غير متميزة: أولها: إن "إطار" القصة ترتيب عمل موخراً، وثانيها: أن "مضمونها" زائف، وثالثها "أن حياة ديكارت وعقليته يجب أن يعاد النظر إليها، ونظرة التاريخ تكاد تكون مضادة لنظرة المقال، فما يلفت النظر في تاريخ حياة ديكارت وتاريخ فكرة بروز جانب المصادفات والمفاجآت وتقلب المزاج والذكاء"¹⁰.

وبعيداً عن تلك التشككات في قصة كتابة المقال، نعود لمعرفة معنى المنهج عند ديكارت، حيث يعرفه قائلاً: "إنه جملة من القواعد المؤكدة التي إذا ما راعاها ذهن الباحث عصمته من الوقوع في الخطأ، وتمكن من بلوغ اليقين في جميع ما يستطيع معرفته بدون أن يستنفذ قواه في جهود ضائعة".

وقد كان المنهج الديكارتي رد فعل على منطق أرسطو العقيم المجذب الذي أدى إلى جمود الفكر وعدم تقدم المعرفة، وقد قام المنهج الديكارتي في حقيقته على دعائمين هما: الاستنباط الرياضي والحدس العقلي المباشر، وهما فعّالان عقليان يمارسهما أي إنسان بالفطرة، فالحدس هو الرؤية العقلية المباشرة التي يدرك بها الذهن بعض الحقائق، ويسلم بها العقل تسليماً، أي أن العقل ومضة سريعة للعقل يدرك بها الإنسان الحقائق اليقينية إدراكاً مباشراً دون مقدمات أو الحاجة إلى شهادة الحواس، أما الاستنباط هو فعل من أفعال العقل تنتقل فيه من حقائق معينة مسلم بصحتها إلى نتائج تلزم عنها. وقد لعب الاستنباط الرياضي دوراً كبيراً فيه، حيث إن الرياضة الكلية هي هذا المنهج العام الذي يرى ديكارت أنه من الممكن تطبيقه على جميع العلوم المختلفة، ولأن المعرفة الرياضية كانت بمثابة النموذج الأمثل للمعرفة اليقينية، فالعلم لا يكون يقيناً إلا إذا اتخذ صورة المعرفة الرياضية التي يتم اكتسابها عن طريق المنهج الرياضي، وكان هدف ديكارت الوصول إلى اليقين بمنهج عقلي استنباطي محدد، الذي يقوم على أساس أفكار واضحة متميزة، ليبني عليها معرفته اليقينية بالبدهة العقلية أو الحدس، وإذا وصلنا إلى هذه الحقائق الحدسية أمكن اتخاذها مقدمات لاستنباطات يقينية بعيدة عن كل شك. ولكن من الخطأ أن نظن أنه يريد أن ينقل منهج الرياضة الكلية إلى الفلسفة، والأقرب إلى الصواب أن نقول أنه كان يريد أن يضع في الفلسفة منهجاً مماثلاً للرياضة الكلية؛ لأنه كما تصور وحدة العلوم الرياضية تصور أيضاً وحدة العلوم الفلسفية. ويجب أن تبدأ كل دراسة لمنهج هذا الفيلسوف بإقرار مبدئين أساسيين، هما كما نرى: مبدأ استقلال العقل، ومبدأ المساواة بين العقول. أما المبدأ الأول فهو مبدأ ضمني، ومعناه أن العلم الكلي بالذات يجب أن يبدأ باستقلال العقل استقلالاً تاماً بعيداً عن كل سلطة علمية أو غير علمية. وكان يشير بذلك إلى سلطة أرسطو في عصره ومن يسانده من رجال الدين الذين استخدموا منطقهم وفلسفتهم في الدفاع عن العقائد الدينية الكنسية. وأما المبدأ الثاني، فهو مبدأ المساواة بين العقول إذ يقول في بداية "المقال في المنهج": "العقل هو أحسن الأشياء توزعاً بين الناس بالتساوي"¹¹. إذن يقر ديكارت منذ البداية بأن العقل أعدل الأشياء قسمة بين البشر، فلم يتميز إنسان عن إنسان بزيادة كمية في العقل، ولكن الذين يجعل الناس متميزين هو كيفية استخدام كل واحد منهم لعقله، فيقول ديكارت عن ملكة العقل أو النطق إنها: "تساوي بين كل الناس بالفطرة، وكذلك يشهد بأن اختلاف آرائنا لا ينشأ من أن البعض أعقل من البعض الآخر، وإنما ينشأ من أننا نوجه أفكارنا في طرق مختلفة، ولا ينظر كل منا في نفس ما ينظر فيه الآخر لأنه لا يكفي أن يكون للمرء عقل، بل المهم هو أن يحسن استخدامه"¹².

إن تلك المعادلة الفكرية تدل على أننا جميعاً نملك تلك القدرة في الوصول إلى الحقيقة، وقد يكون البعض منا أذكى من البعض الآخر، لكن القدرة على التمييز والحكم السليم، هي واحدة بين الناس جميعاً¹³.

فإذا ما توفر للعقل استقلاله، وإذا سلم بقدرته على المعرفة كان لابد ساعياً إلى الحقيقة والعلم.

قواعد المنهج عند ديكارت

ذكر ديكارت "في المقال في المنهج" أربعة قواعد أساسية يجب أن يتبعها العقل في البحث عن الحقيقة في العلوم، بحيث إذا ما راعاها الباحث بدقة عصمته من الوقوع في الخطأ، وقد بدا هذا المنهج بقواعده الأربع غريباً لرجال العلم، الذين كانوا يبحثون عن قواعد تجريبية ومبادئ علمية لا نظرية. كما بدا بسيطاً ومبسوطاً للغاية في نظر الفلاسفة، ولكن تلك كانت فكرة ديكارت عن المنهج، لكي يكون شبيهاً بالمنهج الرياضي الذي يبدأ بالبسيط ثم يتدرج من البسيط على المركب.

القاعدة الأولى: قاعدة البداهة والوضوح

هي أهم القواعد وأخطرها، وقد ذكرها وأكد عليها ديكارت في "المقال في المنهج" وفي "التأملات" وأيضاً في "مبادئ الفلسفة"¹⁴ مما يدل على عظم مكانتها في منهجه، وهي تؤكد على أن الإنسان حين يبحث عن الحقيقة في أي موضوع عليه أن يحرر نفسه من كل سلطة إلا سلطة العقل، يقول ديكارت شارحاً هذه القاعدة: "أن لا أتقبل شيئاً ما على أنه حق ما لم أعرف يقيناً أنه كذلك: بمعنى أن أتجنب بعناية التهور، والسبق إلى الحكم قبل النظر، وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتثل أمام عقلي في جلاء وتميز، بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك"¹⁵. ويرى كل من إيتون EATON ورايت WRIGHT أن هذه القاعدة ترى: إننا يجب علينا ألا نقبل من الأفكار إلا ما هو واضح وجلي، وصادر عن البداهة العقلية ونور العقل الفطري، وتطالبنا أيضاً، في الوقت ذاته، بأن نتخلص من الآراء السابقة، وأن نبذل قصارى الجهد لاجتناب التحيز والتسرع في إصدار الأحكام¹⁶.

ويرى بعض الباحثين¹⁷ أنه بتحليل هذه القاعدة يتبين لنا ما يلي:

1- إنها تدعو إلى استقلال العقل بعيداً عن كل سلطة يمكن أن تفرض أحكامها عليه بصورة مسبقة.

2- إن العقل يهتدي بالبداهة إلى الحقيقة، أي بالحدس العقلي أو بذور العقل الفطري والطبيعي، وكما أن البصر قد خلق لرؤية الأشياء، فكذلك العقل قد جبل على الرؤية المباشرة للحقيقة.

3- إن اليقين هو معيار الحقيقة، وهو ضد الشك، والمعرفة اليقينية هي التي نطلق عليها اسم العلم، أما المعرفة الاحتمالية فلا يمكن أن نسميها علماً، لأنه يمكن الشك فيها. هذا اليقين المطلق الذي يريده

ديكارت والذي لا يتطرق إليه الشك، يماثل يقين الرياضيات، إنه أيضاً المطلب الأساسي للعقل في البحث عن الحقيقة.

3- لا يكفي أن نوقن بالفكرة التي يمكن أن ندركها بالبداهة، بل يجب أن تكون هذه الفكرة واضحة متميزة. أما الوضوح الذي يعنيه ديكارت، فهو وضوح مضمون الفكرة بحيث لا تكون غامضة ومبهمة. كذلك فإن المضمون المتميز يخص فكرة واحدة، ولا يخص فكرتين في وقت واحد، والالتباس في المعنى والمفهوم، هو ضد التميز الذي يريده ديكارت في الأفكار. نقول أيضاً، إن الوضوح والتميز لا يظهران إلا للعقل الواعي المنتبه.

4- يجب أن نتجنب التسرع في الحكم؛ لأن ذلك سوف يوقعنا في الخطأ حتماً، ومهما كانت الغاية الطيبة في البحث عن الحقيقة، فإن التسرع سوف يبعدنا عن هذه الغاية.

القاعدة الثانية: قاعدة التحليل والتقسيم

ويرى ديكارت في هذه القاعدة أن كل مشكلة نقوم بدراستها هي مشكلة مركبة، وذات جوانب متعددة، ومن ثم فعند التصدي لدراسة أي مسألة أو عند حل أي مشكلة يجب علينا أن نقوم بتحليل وتقسيم المشكلات بقدر ما نستطيع، وبقدر ما تسمح به طبيعة كل مشكلة، وذلك لحلها على أفضل وجه ممكن، يقول ديكارت: "أن أقسم كل واحدة من المعضلات التي سأختبرها، إلى أجزاء قدر المستطاع، على قدر ما تدعو الحاجة إلى حلها على خير الوجه"¹⁸.

إن القسمة والتحليل هنا، ليس الغرض منها تفتيت المشكلة، وحل كل جزء منها على حدة، فربما ضاعت منا المشكلة. لكن يبقى الغرض الأساسي منها هو الكشف عن المجهول الذي نبحث عنه، من خلال المعلوم الذي نعرفه. والحق أن كل الحقائق غير البسيطة التي نتكشف لنا إلا من خلال التحليل. ولذلك فعملية التقسيم والتحليل التي يقصدها ديكارت تشبه إلى حد كبير التحليل الرياضي، عندما يستخدم لحل مسألة هندسية أو حسابية... الخ، بواسطة المبادئ والنظريات التي نعرفها. وفي علم الطبيعة إذا أردنا تحليل ظاهرة مثل "قوس قزح" فنحن نفترض مجموعة من الأسباب، ثم نفحص كل سبب منها على حدة، حتى نصل إلى الأسباب الحقيقية¹⁹.

القاعدة الثالثة: قاعدة الترتيب أو التأليف

وتعد هذه القاعدة- التي يطلق عليها الباحثون مسميات عدة منها: الترتيب، والتأليف، والتركيب، كل مسمى منهم على حدة، أو الترتيب والتأليف معاً، أو التركيب والتأليف معاً- مكملّة للقاعدة السابقة؛

حيث كان التحليل عند ديكارت، في الواقع، عملية تمهيد للتركيب، حيث يجب علينا أن نرتب أفكارنا أولاً فنبداً بأبسطها، ثم نتدرج قليلاً قليلاً حتى نصل إلى معرفة أكثر تعقيداً، يقول ديكارت: "أن أسير أفكاري بنظام، بادئاً بأبسط الأمور وأسهلها معرفة، كي أتدرج قليلاً قليلاً حتى أصل إلى معرفة أكثرها ترتيباً، بل وأن أفرض ترتيباً بين الأمور التي لا يسبق بعضها البعض الآخر بالطبع"²⁰.

إن عملية ترتيب الأفكار والقضايا هي عملية بالغة الأهمية عند ديكارت. فهي تسير وفقاً لضرورة عقلية لا وفقاً لهوى الأشخاص، ومن الخطأ كل الخطأ أن نتخطى هذه الدرجات الضرورية بين القضايا، أو أن نصعد السلم في قفزة واحدة. ويبدو أن المسلسلات الجبرية هي نموذج هذا الترتيب عنده، فهي تبدأ دائماً بالواحد، أي بالوحدة البسيطة، ثم نتدرج بعد هذا سلسلة الأعداد، وكل الأعداد مرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً، والترتيب إذن، هو ترتيب تصاعدي، يبدأ من الحقيقة البسيطة، أو الطبائع البسيطة، ليصل إلى الحقائق المركبة. ويبدو من هذه القاعدة أثر الرياضيات في بناء فلسفة هذا الفيلسوف.

القاعدة الرابعة: قاعدة الإحصاء والمراجعة

وتم في هذه القاعدة مراجعة كل الخطوات السابقة حتى نكون على ثقة من أننا لم نغفل أي عنصر من موضوع البحث، فيقول: "والأخير، أن أعمل في كل الأحوال من الإحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئاً"²¹.

هذه القاعدة تدعونا إلى التأكيد من أننا في عملية التركيب لم نغفل أي جزء من أجزاء المشكلة التي نريد حلها. إنها عملية استقراء نريد أن نتجنب فيها السهو والخطأ.

هذه هي قواعد المنهج الذي أراد ديكارت أن يكون منهجاً للعلم والفلسفة، وأهم ما يميزه أنه منهج عقلي بحت، يبدأ بالبدهة واليقين. وهو لا يفرض قيوداً على العقل، بل يجعله مستقلاً حراً، ينطلق وراء الحقيقة، بينما كان منطق أرسطو جامداً، لا يسمح بالتقدم الفكري، والخروج عن المقدمتين، هذا فضلاً عما كان ينطوي عليه من دور في التفكير ومصادرة على المطلوب. ولقد قال ديكارت: إن أكثر ما يرضيني هو أنني استعملت المنهج العقلي، إن لم يكن على وجه كامل، فعلى الأقل، على أفضل وجه ممكن. فما هو هذا المنهج الديكارتي؟ وما هي أهم خطواته الأساسية؟ وما هي الدوافع التي أدت إليه؟

لقد كشف القرن السابع عشر عن ثورة علمية عارمة ظهرت بواورها الأولى منذ عصر النهضة والأمر الذي لا شك فيه أن تجربة المنهج عند "بيكون" تعد محاولة رائدة في هذا المجال بعد عصر النهضة فقد وضع منهجاً له خطواته المحددة في ميدان العلوم الطبيعية. وجاء ديكارت بمنهجه يؤكد المسيرة في هذا الاتجاه بعد قرون طويلة من الخضوع للمنطق الأرسطي. وذلك بعد أن أقر أن سبب التخبط الذي

عانت منه أوروباً في العصور الوسطى المظلمة هو السير على غير هدى من منهج محدد، كذلك ظهر له أن آفة الفلسفات السابقة تتمثل في افتقارها إلى منهج دقيق، يجعلها لا تلتزم بعالم الفكر المجرد في عزلة عن العالم الطبيعي، وتلك سمة اكتسبها تفكير ديكارت من النظر في البناء الرياضي للهندسة التحليلية التي جمعت بين تحليل الأقدمين وجبر المحدثين التي صاغها علماً متكاملأً أضيف إلى علوم الرياضة المتعارفة في عصره، وما تلاه من عصور. ولذا فإن ديكارت سيظل فاتحاً باباً كان من قبل مغلقاً، وهو البحث عن منهج البحث الفلسفي طمعاً في الوصول إلى مواقف لها نصيب من الدقة والموضوعية، وسوف يظل ديكارت إماماً بمنهجه لكل من يأتون بعده وإن اختلفوا عنه في موقفه الفلسفي²².

وبعد أن عرفنا ماذا يعني المنهج وما هي قواعده كما رآها ديكارت، ننتقل الآن إلى تطبيق ديكارت لهذه الخطوات المنهجية، كي يتمكن من تجنب الأرض الرخوة والوصول إلى الصخر الصلب، كما كان يقول دائماً، ويقصد من ذلك التخلص من الريب والشكوك والوصول على اليقين. فأخذ يشك في وجود نفسه ووجود العالم ووجود الله، وعن طريق إثبات وجود نفسه من جهة الكوجيتو "أنا أشك (أفكر) إذن أنا موجود" استطاع أن يثبت وجود نفسه، فإن تحليل عملية الشك في كل الحقائق يؤدي بنا إلى ضرورة وجود فاعل يشك أو ذات مفكرة تقوم بعملية الشك، لأنه لا يمكن أن يحدث الشك أو يظهر بدون تلك الذات المفكرة الشاكة. وإلا فمن يقوم بهذا الشك؟! إذن فالذي يشك لابد أن يكون مفكراً، والذي يفكر لابد أن يكون موجوداً؛ لأنه لا يمكن للعدم أو لغير الموجود أن يفكر. وهكذا توصل ديكارت من الشك السابق إلى أول حقيقة يقينية لا يمكن إخضاعها للشك إطلاقاً. وعن طريق الشك الذي لا يكون إلا مع النقص لأن الكامل لا يشك، وأن الإنسان عندما يشك ويفكر يشعر دائماً أنه كائن ناقص متناه، يأتي به غيره إلى الوجود ويفنى بعد فترة قصيرة ويصبح عدماً، بالإضافة إلى أنه يشعر بالنقص والعجز إزاء كثير من حقائق الوجود، لذلك فهو بطبيعته كائن ناقص باستمرار. وشعور الإنسان بالنقص معناه أن لديه فكرة عن الكمال في ذهنه، هي التي يقارن بها نقصه الدائم، فمن أين إذن جاءت هذه الفكرة عن الكمال؟ قال ديكارت إنها جاءت إلينا بواسطة الله تعالى الكامل؛ لأن وجودها في الذهن الداخلي للإنسان دليل على وجودها في العالم الخارجي، دون أن تكون دليلاً على أن الإنسان نفسه كامل؛ لأننا عرفنا أن الإنسان بطبيعته عاجز لم يخلق نفسه بنفسه، وإنما الله الكامل هو الذي يقوم بهذه المهمة الكبيرة، وعلى هذا لا يمكن إنكار وجود الله أبداً. ومن ثم استطاع ديكارت أن يثبت وجود الله وهو الكامل الذي يجيء نقيضاً لفكرة النقص المغروسة فينا.

كما أن وجود الله الكامل سيمنع ذلك الشيطان الماكر من العبث بعقله وأن يصور له الوهم على أنه حقيقة، فالصدق الإلهي الذي هو نتيجة للكمال فالكذب يتنافى مع الكمال سيجعلني أطمئن إلى صحة

إدراكي لهذا العالم بكل ما فيه من الموجودات وتصبح كافة حقائقه يقينية واضحة أمام عقلي، فينتهي ديكارت إلى اثبات وجود العالم بعد أن اطمئن إلى وجود نفسه ووجود الله تعالى.

فلقد وضع ديكارت منهجه الاستنباطي القائم على عمليتي الحدس والاستنباط ووضع قواعد لهداية العقل في طريق البحث العلمي، وكان هدفه هو الوصول إلى الحقيقة اليقينية التي لا شك فيها، لذلك أكد في مؤلفاته أنه للفحص عن الحقيقة يحتاج الإنسان مرة في حياته إلى أن يضع الأشياء جميعا موضع الشك وأن لا يقبل منها إلا ما يتضح له بالبداهة على أنه حق.

الإحالات:

- ¹ المعجم الفلسفي، إشراف د. إبراهيم مذكور، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983، ص 178 (مادة مذهب عقلي).
- ² هويدي، يحيى، مقدمة في الفلسفة العامة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة التاسعة، القاهرة، د.ت. ص 137.
- ³ هويدي، يحيى، مقدمة في الفلسفة العامة، ص 137.
- ⁴ النشار، مصطفى، أرسطوطاليس، حياته وفلسفته، دار الثقافة العربية، الطبعة الأولى، القاهرة، 2002، ص 182. وأنظر أيضاً، محمد علي أبو ريان: دراسات في الفلسفة اليونانية، أرسطو والمدارس المتأخرة، دار المعرفة الجامعية، 1993، ص 121-125.
- ⁵ نقلاً عن: نازلي إسماعيل حسين، الفكر الفلسفي، ص 197.
- ⁶ ديكارت، "مقال عن المنهج" ترجمة محمود الخضيرى، تقديم: عثمان أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000، ص 71-72.
- ⁷ المصدر السابق، ص 85.
- ⁸ نازلي إسماعيل حسين، الفلسفة الحديثة، رؤية جديدة، مكتبة الحرية الحديثة، عين شمس، 1979، ص 99.
- ⁹ رابوية عباس، عبد المنعم، ديكارت والفلسفة العقلية، ص 76.
- ¹⁰ أمين، عثمان، مقدمة كتاب المقال عن المنهج، ص 53.
- ¹¹ ديكارت، مقال عن المنهج، ص 69.
- ¹² ديكارت، مقال عن المنهج، ص 70.
- ¹³ نازلي إسماعيل حسين، الفكر الفلسفي، ص 205.
- ¹⁴ أنظر، ديكارت، مبادئ الفلسفة، ترجمة: عثمان أمين، الجزء الأول، مكتبة النهضة المصرية، 1960، ص 171-175.
- ¹⁵ ديكارت، مقال عن المنهج، ص 97.
- ¹⁶ EATON, R.M.,(ed), Descartes: Selections ,Charles Scribner's ,U.S.A1997, p.40. and see also, WRIGHT, W.K., A History of modern philosophy, New york, 1942,72.
- ¹⁷ نازلي إسماعيل حسين، الفكر الفلسفي، ص 207-208.
- ¹⁸ ديكارت، مقال عن المنهج، ص 98.
- ¹⁹ نازلي إسماعيل حسين، الفكر الفلسفي، ص 208-209.
- ²⁰ ديكارت، مقال عن المنهج، ص 98.
- ²¹ ديكارت، مقال عن المنهج، ص 99.
- ²² محمود فهمي زيدان، مناهج البحث الفلسفي، دار الأحد البحيري إخوان، بيروت، 1974، ص 63.